

الالتزام بالنزعة الوطنية في الشعر الجزائري " قراءات من نماذج شعرية "

Commitment to Patriotism in Algerian Poetry "Readings from Poetic Models"

تامى سعاد¹

جامعة الدكتور مولاي الطاهر . سعيدة

مخبر اللسانيات و الترجمة

souad1977@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2019/03/19 القبول 2022/08/21 النشر على الخط 2022/09/15

Received 19/03/2019 Accepted 21/08/2022 Published online 15/09/2022

ملخص:

لا ريب أن قيمة الشعر في أي زمن تنطلق من طريقة تفاعله مع موضوعات الحياة، و خصوصاً إذا كان الأمر متعلقاً بحياة مصيرية للإنسان، الذي يتحول إلى محور أساسي لهذا النمط من الصراع، و نتيجة لهذا ظهر الأدب الملتزم رداً فعل على فكرة الفن للفن. و عليه نجد أن الشعراء الجزائريين لم يكونوا بمنأى عن دائرة الالتزام و خصوصاً أن الجزائر عاشت ويلات الاستعمار، و من أمثال هؤلاء الشعراء مفدي زكريا، محمد العيد آل خليفة، رمضان حمود، و غيرهم، فقد آمن هؤلاء بأهمية الكلمة و دورها في تغيير كثير من الأوضاع، ولاسيما أوضاع الثورة التحريرية، و دافع التحرر من المستعمر، فجاء شعرهم حاملاً النزعة الوطنية مبرزاً أهمية حب الوطن و التضحية من أجله. من هنا تنطلق مجموعة من التساؤلات أهمها: ما معنى الأدب الملتزم؟ و ماهي الدواعي التي استدعت الالتزام في الشعر الجزائري و لا سيما الثوري منه؟ وهل كان الالتزام بالبعد الوطني أثر على الثورة الجزائرية.

الكلمات المفتاحية : الالتزام ، النزعة الوطنية، الشعر الثوري، الصورة الشعرية .

Abstract:

There is no doubt that the value of poetry at any time stems from the way it interacts with the topics of life, especially if it is related to the fateful life of man, which turns into a main focus for this type of conflict, and as a result of this, committed literature appeared in reaction to the idea of art for art. Accordingly, we find that the Algerian poets were not immune from the circle of commitment, especially since Algeria experienced the scourge of colonialism, and such poets are Mufdi Zakaria, Muhammad Al-Eid Al-Khalifa, Ramadan Hammoud, and others. They believed in the importance of the word and its role in changing many situations. , especially the conditions of the liberation revolution, and the motive for liberation from the colonizer, so their poetry came bearing the patriotism, highlighting the importance of patriotism and sacrifice for it. From here, a set of questions, the most important of which are: What is the meaning of committed literature? And what are the reasons that necessitated commitment in Algerian poetry, especially the revolutionary one? Was the commitment to the national dimension impact on the Algerian revolution?

Keywords: commitment, patriotism, revolutionary poetry, poetic image.

تمهيد:

الثورة الجزائرية لم تكن ثورة الشعب الجزائري، ثورة على فرنسا فقط، وإنما كانت بمثابة شعلة أمل أوقدها الشعب الجزائري في قلوب كل الشعوب المحتلة، ولهذا إذا حاولنا أن نعطي مفهومًا للثورة الجزائرية فليس هناك تعريف أفضل من تعريفها بأنها فعل إنساني قبل كل شيء هدفها التغيير الشامل، ثانياً هي محاولة لقلب الموازين لصالح الكفة الضعيفة مُستَلَبَة الحقوق، مُستَلَبَة الوطن والكرامة، هي محاولة لاسترداد الحقوق، والثورة الجزائرية لم تكن ثورة سلاح ورمص فقط إنما كانت ثورة كلمة بكل أنواعها أيضاً الكلمة التي لطالما زرعت الخوف والرغبة في قلوب كل الظالمين المستبدين كانت عبارة عن شعارات وأبيات خطابية والأهم من ذلك كانت شعراً، الشعر الذي لطالما لعب دوراً مهماً في حياة الشعوب العربية منذ ظهور أول قصيدة، شكل رمزاً للقوة، للفخر رمزاً للانتفاضة على الواقع.

لقد لعب الشعراء الجزائريون دور الجندي المجهول والخفي في الثورة الجزائرية فقد كانوا إن أمكن القول الممهدين لها، والداعين إليها، والناقلين لأحداثها في قالب مستساغ، يقول نزار قباني: "أحياناً لا يستطيع شعب من الشعوب أن يبكي بصورة علنية فتأتي قصيدة الشعر لتتولى البكاء عنه" (مصطفى، 2000، 106) وهذا ما خلق التزاماً من نوع فريد بين الشعراء والثورة الجزائرية، فقد صنعت علاقة من نوع مختلف بينهما قائمة على التأثير والتأثر فالشاعر الجزائري ذه القضية المصيرية لم يكن التزاماً مؤقتاً انقضى مع انقضاء الثورة ونيل الاستقلال، لعكس التزام الشاعر الجزائري لثورة مزال لحد الآن لأنه لا يريد لتاريخ وبطولات أجداده أن تنس وتبقى مجرد ذكريات، وإنما هو يسعى دائماً إلى إحيائها في كل مرة تسنح له الفرصة فيها.

أولاً: إشكالية البحث

مما سبق ذكره سوف نقوم بمعالجة الإشكالية التالية:

إلى أي مدى كان للشعر الجزائري الوطني أثر على نفسية المواطن الجزائري لاستيقاظ روحه الوطنية من أجل الوقوف في وجه المستعمر؟

من هذه الإشكالية يمكننا طرح التساؤلات التالية:

- 1- ما المقصود بالالتزام في الشعر؟
- 2- هل للالتزام في الشعر بعداً و أثراً على جريان أحداث الثورة الجزائرية؟ و إلى أي مدى حقق الشاعر الجزائري الحديث هدفه الاجتماعي و السياسي من خلال التزامه بقضية الوطن في شعره؟

ثانياً: أهداف البحث

تهدف هذه الدراسة إلى ما يلي:

- 1- تسليط الضوء على مفهوم الالتزام وكيف يتجلى في الشعر الجزائري الحديث .
- 2- البحث في نماذج شعرية عن ظاهرة الالتزام بالنزعة الوطنية التي تبناها بعض الشعراء المهتمين بقضية التحرير الوطن.

ثالثا: أهمية البحث

تعتبر هذه الدراسة مهمة من خلال النقاط التالية:

- 1-تناول مقاطع شعرية لشعراء جزائريين افنوا حياتهم لخدمة هذا الوطن (الجزائر) .
- 2- إبراز دور الشعر الثوري و أثره على نفسية متلقيه و دوره في نشر الوعي القومي و السياسي.

-مفهوم الالتزام:

الالتزام في اللغة: "الاعتناق والمداومة على الشيء" (ابن منظور، دت، 59)، ويقال لَزِمَ الشَّيْءَ يَلْزِمُهُ لَزْمًا وَلُزُومًا، وَلَا زِمَهُ مُلَازِمَةً وَلَزَامًا وَالتَّزَامُهُ، وَالزَّمَهُ إِيَاقَهُ فَالتَّزَمَهُ، وَرَجُلٌ لَزِمَهُ يَلْزِمُهُ الشَّيْءَ فَلَا يُفَارِقُهُ، وَالزَّامُ وَمُلَازِمَةُ الشَّيْءِ الْمَدَاوِمَةُ عَلَيْهِ، لَزِمَ الشَّيْءُ: تَعَلَّقَ بِهِ وَلَمْ يَفَارِقْهُ، التَّزَامَ الْعَمَلُ وَالْمَالُ: أُوحِيَهُ عَلَى نَفْسِهِ (أبو حاقه، 1979، 1)، وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى "وَالْزَمُّهُمْ كَلِمَةً التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ أَوَّاهِلَهَا" (سورة الفتح . الآية 26) .

ثم خصص المعاصرون هذه الكلمة في استعمالاتهم الفنية والأدبية وأصبحت مصطلحا من المصطلحات يعني المشاركة في قضا الجماهير والعمل على حل مشكلاتهم، وأخذوا يستعملون لفظة "الالتزام" فيما يستعمل فيه اللفظ الأوروبي "Engagement" الذي يعني التعهد والارتباط بعامة وه ذه القضايا الجماهيرية بخاصة (طبانة، 1984، 15).

ب اصطلاحا:

قبل أن يكون الالتزام قضية نقدية أو أدبية، هو في الأساس قضية إنسانية اجتماعية توضح ما آل أو ما وصل إليه الوعي مدى تفاعله الإنسان مع قضايا مجتمعه، الذي هو جزء منه يعيش كل مشكلاته وهمومه وقضاياها، وهذه الأسس تعد قوام العمل الأدبي بصفة عامة والشعري بصفة خاصة.

و لقد تواترت تعاريف الأدباء والنقاد للالتزام على مدى العقود الماضية، يعرفه مجدي وهبة وكامل الخطيب فيقولان: إن الالتزام هو "اعتبار الكاتب فنه وسيلة لخدمة فكرة معينة عن الإنسان لا لمجرد تسلية غرضها الوحيد المتعة والجمال" (مجدي/كامل، 1984، 51)، وجاء في المعجم الأدبي أن مفهوم الالتزام هو "حزم الأمر على الوقوف بجانب قضية سياسية أو اجتماعية أو فنية، والانتقال من التأيد الداخلي إلى التعبير خارجيا عن هذا الموقف بكل ما ينتجه الأديب أو الفنان من آثار" (عبد النور، دت، 32)، وهذا يعني أن الالتزام ليس مجرد تأييد نظري للفكرة، وإنما هو سعي إلى تحقيقها، فليست الغاية أن نطلق الكلمات بغية إطلاقها تترنم بالمبادئ و الشعارات بل يجب علينا أن نعيشها.

والأديب الملتزم هو على -حد تعبير الدكتور محمد مندور- "المقدر لمسؤوليته إزاء قضايا الإنسان والمجتمع في عصره" (وهبة/كامل، 51).

ونستنتج من كل ما سبق أن الالتزام يعني إحساس الأديب بالمسؤولية تجاه فكرة آمن بها وعزم على الدفاع عنها عن قناعة تظهر في نتاجه الأدبي.

وقد اتخذ الالتزام في الغرب حدودا رسمتها له المذاهب الأدبية والفلسفية، كالواقعية الاشتراكية والوجودية، فبعد ظهور الواقعية الاشتراكية أصبح أساس الابتكار الفني هو إدراك الفنان للحقيقة الموضوعية، لا الخيالية الذاتية الشخصية. والذي يقرر درجة الإنتاج الفني في الأدب الواقعي إذن هو قدرة الصورة الفنية على دعم الحياة الاشتراكية (بطانة، 1984، 16).

-العلاقة بين الشعر و الثورة :

فالشعر أكثر أنماط الأدب ليونة، واقدرها على التعبير عن المكنونات من جهة، واحتواء الثورات من جهة أخرى ، فهو كما يعبر " غالي شكري: « فن المقاومة بشكل عام» (غالي، 1970، 302).

ومن هنا تتعدد وجوه الصلة بين الشعر والثورة— فالشاعر إنسان، والثائر إنسان أيضا— وهذا ما جعل عملية التأثر والتأثير ميسم العلاقة بينهما، فهناك ثورات خل دت أسماء، وهناك أسماء خلدت ثورات ! ! ولم نكن لنسمع عن ملاحم الإغريق الأوائل، ولا أن نجلها لولا موهبة شاعر يدعى "هوميروس" ولا عرفنا قيمة فتح "عمورية" وعظمتها لو لا ما جادت به قريحة شاعر قد يعرف بـ "أبي تمام"، ولا كنا سمعنا عن حروب " سيف الدولة "أو ذكرناها وذكرناه لو لا عبقرية شاعر يكنى "المتنبي". وقس على ذلك الكثير... ولم يخلُ العصر الحديث من هذا الأمر، وما كانت تغنينا أبدا، قراءة تاريخ المقاومات والثورات الإنسانية ضد الاستعمار أو الإقطاع أو الدكتاتوريات، ولا كان يقنعنا هذا منها، بل لم نكن لـ "نشعر" بها لولا رجال خلدوها على طريقتهم، ولننظر إلى الشعر الذي أبدعه " غارسيا لوركا "في المقاومة الإسبانية، أو ذاك الذي خلّد به " لويس أراغون "الثورة الفرنسية ! إن هذه الثورات خلدها التاريخ كتواريخ، لكن الشعر خلدها كقيم، ومواقف وكنقاط تحول كبرى في حياة الشعوب والأفراد، ولهذا حفظتها الشعوب، وقدسها الأفراد. ! !

إن الشعر يكتب الثورة، ويشعلها كما الثورة تفتح مجال الإبداع والخلق للشاعر، فهي تصنع له الأفكار، وتخلق له الرؤى، ولا تتخيل أن علاقة كهذه، كل حدودها المنفعة المتبادلة، لا تنفصم، بل من اليسير جدا أن تنهاى، وأن يبتعد الشعر بمومه عن الثورة، وأن تبتعد الثورة بمومها عن الشعر إن كان كل ما يوحدهما هذه " البراغماتية "المؤقتة، فإن أي علاقة إن قامت على شيء زالت لفقده، لكن علاقة الشعر بالثورة أعمق من هذا وأوثق، ذلك أن الشاعر إنسان يعيش مجتمعه، وواقعه وآفاقه، بل هو شعلة أحاسيس، وموهبة، ووعي تؤهله لأن يكون أكثر انفعالا، وتفاعلا— من الإنسان

فالشعراء أكثر حساسية، واسرع انفعالا، « العادي —مع ما يطرأ من أحداث، وما يستجد من أمور » (رماني، 1985، 33)

وأقوى إرهاسا بتيارات الحياة، ومدها الثوري من غيرهم والشاعر يعطي الثورة أعز ما يملك، ويبدل في ذلك بعضا من دمه، وجسده وروحه وأعصابه، ولتنظر لشاعر عاشق يرفل في الحرير مكث على رأي العقاد— أربعين عاما في مخادع النساء لا يخرج منها،

هو نزار قباني، يعلن التوبة والطلاق من النساء والحدود، والنهود، وأجساد المرمر وقوارير العطور، ... بسبب نكسة العرب حزينان 1967 ليقول بلا تكلف:

يا وطني الحزين

حولتني بلحظة

من شاعر يكتب شعر الحب، والحنين

لشاعر يكتب بالسكين (قباني، 1971، 09)

إن الثورة الخارجية قد تكون سببا للثورة الداخلية، وكما أن حرفا قد يشعل حربا، فإن حربا قد تلهب حرفا! إلى هذا، فالإنسان العادي ينظر إلى الشاعر دائما نظرة المنتظر والمتشوف إلى الجديد، والجميل وليس يكفيه أو يعزیه إن عرف، وعاش الحدث، ما لم يكن الشاعر من نقل إليه هذه المعرفة، وصور له هذا الحدث.

إن الجماهير تعيش الثورة واقعا، لكن الشاعر يعيشها أحلاما أيضا، إنه القادر - وهو المهدف الحس المالك لبيان النظم - على جعل هذه الجماهير تنفجر، والقادر على تحويلها إلى علبة كبريت مبللة غير ذات جدوى، وصعب أن تتحول الوردة الفيحاء في يد بشر إلى سكين حاد، ولكنها تتحول تلقائيا، وفي يسر، إذا كان من يحملها شاعرا!

يمهد للثورة، وينشئها، لأنه يثير نفوس الناس، ويبغض: « ولعل من أهم وظائف الشاعر أنه إليهم بعض أطوار الحياة التي يحبونها، ويعرض عليهم مثلا جديدة يحبها إليهم، ويزينها في قلوبهم (...) وهو بهذا يفتح للثورة أبواب النفوس، والضمائر، ويمهد لها الطريق في حياة الأفراد والجماعات يتاح له النجاح ويدركه الإخفاق أحيانا أخرى » (حسين، 1985، 115). أليس هو « وجدان الأمة وعقلها، المفكر ولسانها الناطق وضميرها الحي وقلبها الخافق » (بلال، 1986، 11).

ولهذا كانت علاقة الثورة بالشعر علاقة تتجاوز المنفعة المؤقتة، علاقة هي من العمق، بحيث تتشابك فيها الخطوط، وتغوص الحدود، ولا يعنينا بحال هنا، من يحدث الأثر الأكبر في الآخر هل الشعر هو الذي يخدم الثورة، أم هل الثورة هي التي تعطي الشعر وتستدعيه؟ ذلك أن « الملهم و الملهم يشترك كلاهما في صنع الإلهام الذي تكون له إضافة في التراث الإبداعي » (العطار، مينة، 1979، 13). وحسب الشعر والثورة أن يوحدهما الهدف ذاته (هدف التغيير)، والاشتراك في الرؤى رغم اختلاف الوسائل والأساليب.

-النزعة الوطنية:

كانت النزعة الوطنية قبل الحرب العالمية الأولى كانت على جانب من الضعف و التماهي و ذلك راجع إلى " انعدام التنظيمات السياسية، و وسائل الإعلام، و القيادة الوطنية التي تحدد أهداف النضال و طريقه، و أنها لم تتجاوز المشاعر الفردية لقلة المثقفين و عدد من الموظفين " (شرقي الرفاعي، 2016، 15).

و قد أدى هذا المستوى الضيق من الوطنية " إلى تكوين لجنة وطنية سنة 1908، مهمتها الدفاع عن حقوق الجزائريين " (بلقاسم، 1969، 14). حيث ساهم هذا التطور النسبي و الجزئي للأوضاع السياسية بعد الحربين العالميتين خصوصاً بعد احتكاك الجزائريين بشعوب أخرى إبان الحرب العالمية الثانية التي زرعت في عقولهم فكرة التحرر التي كانت سائدة في تلك الفترة، و تزايد الوعي الوطني منذ ذلك الحين، و استئناف الصحافة الوطنية دورها في الكفاح ضد التخلف و المستعمر و ظهور شيوخ و علماء قدموا الكثير في هذا الجانب و منهم الإمام عبد الحميد ابن باديس و الأمير خالد علي مسرح الحياة الوطنية انعكاساً على الشعر الجزائري، حيث يلمس ذلك " في الأراء التي بدأ الشعراء يعبرون عنها، فقد تخطو موقف الخوف و الترهيب، و وصفوا الأوضاع السيئة، و نددوا بالشقاء الذي يعاني منه المجتمع الجزائري كما دعوا إلى النهضة و إلى تغيير الأوضاع، و لمحو إلى الجوانب السياسية و استعملوا في ذلك التقفية و الكناية و الرمز في الموضوع و التعبير " (شرقي الرفاعي، 2016، 72).

و من أهم الشعراء الذين اهتموا بالحياة الوطنية في المرحلة الأولى للنهضة هو "مولود الزيري" فقد نشر قصيدته بعنوان " فيا وطني " حيث يقول فيها :

فيا وطني لم آل جهداً و إنما **** رأيت زماني مع زمانك آتياً
فكم نصبوا لي في هواك و انشئ **** ضميري و قد أبديتُ نفساً عصامياً
فكنت احاكي في سبلي نافخاً **** رماداً فدائي قد من دَوَائِي

يعبر الشاعر عن حبه لوطنه و يستأثّر أوضاعه السيئة، و يأسف لضياح جهوده بسبب الخمول و ضعف الوعي، لأن الوطنية عنده " ليست اتجاههاً سياسياً معيناً و لا موقفاً من قضية أو حق وطني، و إنما هي غير نابعة عن علاقته الروحية و المادية بوطنه، و قد عبر عنها في قصيدة تتضمن الدعوة إلى تغيير الأوضاع السيئة و تحقيق عالم أفضل و الملاحظة أنّ الشاعر يعنى عناية خاصة بالثقافة، كما أنه يستمد آراءه من التاريخ العربي و دور الثقافة في الحضارة العربية الإسلامية " (شرقي الرفاعي، 2016، 73).

و لقد تطرق الشاعر " محمد الهادي الزاهري " أيضاً إلى فكرة الحرية و الحقوق الوطنية و هذا ما عبر عنه بقوله:

أفتش عن حمراء عشقتها **** و في البحث عنها ما سئمت و لم آل
و قد خبروني أنها ابنة ضيغم **** و أنّ بينها في المغرب أشبال

و أن الذي منها يفوز بنظرة **** من الناس طرا إنّما هو رنبال (محمد الهادي، 1926، 199)

و مع تعلق الشاعر بالحرية نجده يعبر عن أفكاره سياسية أخرى تتصل بالنضال الوطني و حتميته، دعماً للنزعة الوطنية و تأكيداً عليها و تحدياً لأعداء الحرية فيقول :

و ليس لنا إلا الجزائر موطن **** تربك فيها واحد و ترابي
سأقضي لها حق الأمومة إنّها **** بلادي التي فيها محط ركابي (محمد الهادي، 1926، 73)

كما نجد رمضان حمود يعبر عن مفهوم للوطنية بقوله: "الوطنية أن تنصر الفضيلة، و تكشف اللثام عن وجه الحقيقة، الوطنية كتاب صحائفه القلوب، ومداده الإخلاص" (حمود، 1928، 50)

فهو يعطى للوطنية مفهوماً أخلاقياً تجديداً، لا يرتبط بالأوضاع الاجتماعية المتردية و لا يتعرض للحقوق الوطنية، و من هذه النقطة فإن الشاعر ملزم بأن يؤدي دوراً إيجابياً داخل مجتمعه عليه النهوض بمشاكل هذا المجتمع وإيجاد حل لها، وأن يؤدي دور المرشد والموجه الذي يفتح بصيرة الناس ويجعلهم يتجهون نحو ما يفيدهم ويحقق لهم منفعة.

فالالتزام الحقيقي في الشعر هو ذاك الالتزام الذي يحافظ على القيم الإنسانية العامة مع القيم الجمالية فلا يخسر أيا منهما وهذا يدفع الحياة إلى الأمام خذ منها ثم يعطيها أكثر مما خذ، وهنا نجد رأيين مختلفين أولهما رأي بدوي طبانة أن الشعر ليس تخيلاً وهمياً وإنما الشعر القائم على الإدراك والتخييل، فعلى الشاعر أن يجمع بين الواقع والجمال، ومنه فقد فرق بين نوعين من الشعراء، أولهما الشاعر الذي يعلق بعيداً في عوالم الجمال غارقاً في الوصف، هائماً في بحور الحب والغزل غير آبه لمشاكل التي تعصف بمجتمعه، وثانيهما الشاعر الذي يغوص في أعماق مجتمعه يعيش ألمه وفرحه وحزنه، يتشارك معه همومه وقضاها، يمجّد ثوراته وبطولاته يعمل على دفع شعبه للكفاح والنضال واستعادة الأرض والنفس والكرامة، هذا هو الشاعر الوطني الملتزم (طبانة، 1984، 22). إذا فالالتزام ركن أساسي في مفهوم الأدب، وهو الوسيط الضروري والطبيعي الذي يجمع بين الجمال والفكر أو بين الإبداع والتصور، فالالتزام مرّن عفوي ينساب في التجربة بغير إلزام أو تكلف، أو قانون صارم يصدر عن أي سلطة تضبط التجربة الفنية، فالذين يدعون أم يرفضونه لأنه قيد على حرية الأديب مناف للقيم الجمالية والفنية يلتزمون سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا، وهو التزام بقيم لا تتنافر مع العقل والأخلاق والحرية المنضبطة بعقيدة وهذا التناغم بين الالتزام والحرية المنضبطة لا المطلقة هو لب الفن الحق (اسماعيل، 1981، 31).

- البعد الوطني في الشعر الجزائري و علاقته بالثورة:

لقد بدأت الدعوة إلى الالتزام في الشعر الجزائري مع الحركة الإصلاحية في الجزائر سنة 1925 ، ولم تخرج عن إطار أن كون الشعر في خدمة قضايا المجتمع، والشعراء الذين واکبوا الثورة الجزائرية والذين آتوا بعدها تبناوا هذا الطريق "الالتزام"، ومن أوائل الذين تبناوا هذه القضية الشاعر رمضان حمود، وهذا الأخير يرى أن للشاعر رسالة إزاء مجتمعه ينبغي عليه أن يؤديها بصدق ونزاهة، كما يرى أنه ينبغي على الشاعر أن يكون دائماً وأبداً صوت الوطن وضمير الأمة، واللسان الداعي إلى التحرر من الطغيان وكسر الأغلال ، وعلى هذا الأساس طالب رمضان حمود الشعراء بأن يتحولوا من اهتمامهم بالصنعة اللفظية والأغراض الموروثة ومن شعر المناسبات، إلى شعر يهتم بقضايا المجتمع يعبر عنه ويتشارك معه همومه وآلامه، يقول: "الشعراء روح الشعوب فإذا نصحوا

لها سارت وتقدمت وإذا خانوها فالسقوط والاضمحلال... وأن الشعر الذي لا يحرك نفوس العامة ولا يذكرها بواجبها المقدس، ووطنها المفدى هو خيانة كبرى وخنجر مسمم في قلب المجتمع الشريف" (ناصر، 1978، 56/54).

فهذا الشاعر رمضان حمود، يدعو إلى الجهاد في غير تلثم أو تستر مثل البعض من الشعراء الذين كانوا يهمسون بهذا همسا، ويخافون التصريح فيعمدون إلى التلميح خشية الموت أو السجن يقول:

لَنْ يَنَالَ الْعَزَّ شَعْبٌ كَالْجَمَادِ **** فَقَدْ الْإِحْسَاسُ خَالٍ مِّنَ الشُّعُورِ .

لَنْ يَنَالَ الْمَجْدُ شَعْبٌ بِالرُّقَادِ **** يَتْرُكُ اللَّبَّ وَ تُعْنَى بِالْقُشُورِ .

إنما المجدُ قرينُ بالجهادِ **** و وئام و ثبات في الظهورِ . (ركيبي، دت، 27).

وعلى الاتجاه نفسه سار الشاعر السعيد الزاهري الذي كان يجاهر هو الآخر بآرائه الوطنية بصورة علنية عن طريق النداء الملح، وشحذ العزائم والتوجه إلى مخاطبة الشعب، بأن يعمل دونما كلل، ويركب العزم الجديد إذا ما أراد نيل المراد:

وَ مَنْ يَرْكَبُ الْعَزْمَ الْحَدِيدَ فَإِنَّهُ **** يَهُونُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْصُلُ مَرَمَاهُ .

وَ مَنْ كَانَ فِي أَعْمَالِهِ مُتَكَاسِلًا **** فَسُرْعَانَ مَا يُكَذَى وَ يُخْفِقُ مَسْعَاهُ .

سَعَى مَعْشَرٌ يَبْغُونَ عَيْشًا وَ إِنِّي **** لَأَسْعَى وَ لَكِنْ بَغْيَتِي الْعَزُّ وَ الْجَاهُ .

وَ أَنْدُوبُ "حَظًّا" لِلْجَزَائِرِ ضَائِعًا **** بِهِ طَارَتْ الْعَنْقَاءُ أَلْقَاهُ .

و اسْتَنْهَضُ الْأَحْرَارَ لَامْتَأَوَّهَا **** فَمَاذَا عَسَى يُجْدَى " الْجَزَائِرِ " أَوَّاهُ؟ (طمار، 2006، 35)

فمثل هذه المهمة وحدها يمكن للجزائر في نظر الزاهري أن تقوى على حالها وتنهض من كبوا، وتنال ما تطمح إليه من المعالي، فالأدب الجزائري يمكن منذ البداية أن يؤكد حضور النص الثوري في كل المراحل التي مرت المقاومة الشعب الجزائري.

وقد برهن شعراء الجزائر أثناء الثورة التحريرية و لرغم من إمكاناتهم الفنية المتواضعة بما لا يدع مجالا للشك على أن الواقع المباشر يمكن رفعه إلى أفاق شاعرية دونما أي سقوط في الابتذال النثري، أو التقريرية الممقوتة، كما برهنوا على أن الكلمة يمكن أن تستحيل رشاشا مدو في وجه العدو، تقض مضجعه وتثير رعبه، وتكون من جانب آخر ملهمة الثوار وحمالة هموم شعب ينشد الحرية والاستقلال(عقاق، 2004، 65)، والشعراء الجزائريين لم يكونوا مجرد محفزين للشعب في أن ينال حريته ويستعيد سيادته وإنما سعى إلى فضح الجرائم البشعة والشنيعية التي ارتكبتها الاستعمار الفرنسي في حق الشعب الجزائري، كما استطاع الشعر التأثير في مسار الثورة، من خلال إلهام الشعب الجزائري القوة والإرادة والإصرار للتخلص من الاستعمار والقضاء عليه، يقول صالح خرفي " :إن الشعر الثوري الملتصق لثورة في سهولها وجبالها في مغارا ا وكهوفها، المنصهر فيها وثبة فدائية في المدن، وملحمة

عسكرية في الجبال الملتزم ا كرا وفرا، هزيمة ونصرا، هذا الشعر يكاد يكون العمود الفقري لإنتاج الثورة". (خرفي، 1984، 44)

والجدير بالذكر أن الشعر الجزائري بجميع مراحلها سواء قبل أو أثناء أو بعد الثورة الجزائرية يتسم بالالتزام، وما يجعلنا نقول أنه كان ملتزما قبل الثورة حملة لأصوات الرفض المجسدة في النقمة على المحتل والتمسك لتراث والدين واللغة، وقد تجلت هذه الظاهرة كأروع ما يكون إن الثورة التحريرية، فهذا الشاعر أبو القاسم خمار يعبر عن التزامه الثوري موضحا الأسباب التي جعلته يختار هذا الموقف عن قناعة ذاتية وإيمان عميق " أن الأديب المعاصر لا يفكر لنفسه ولا ينتج رد الإنتاج وخاصة أدينا الجزائري الذي عانى آلام الاحتلال الأجنبي وكل عنف الثور... " (مؤيد، 1963، 193)

يقول أبو القاسم خمار في مقدمة ديوانه "أوراق" والذي يعبر فيه صراحة عن التغير الجذري في أفكاره فقد انتقل من شعر الوصف والغزل، إلى شعر كله حماس كله انتفاضة كل كلمة منه تساوي رصاصة تخترق صفوف العدو وتشجع الثوار على المضي قدما، يقول:

وتركت الغناء شيئا فشيئا *** ولم يعد ذلك الغناء فتيا
أين مني قصيدة تتلظى *** من قصيد يفيض جمرا أيبا
أين مني أغنية لليالي *** من هتاف غطى الربوع دو
أين مني وفي الجزائر آهات *** تهز القلوب هزا قويا
هزالي إذا رفعت مع الثوار *** صوتي ولم يكن مدفعا (خمار، 1967، 08)

ومنه فإن الشاعر محمد بالقاسم خمار يدعو إلى الخوض في الحرب دون التفكير وتخطيم الطغيان ونشر الرعب في نفوس الاستعمار ويقول في قصيدة " إلى الأمام " :

صيحة كالرعد دوت للأمانى للرجال
من شعاب الأرض... من فوق الروابي والجبال
من صميم الغيظ... من قلب الدواهي والليالي
من جروح الثأر... من أعماق مهتاج وقال
من رماء المجد... والأقدام من شوق المعالي (خمار، 1967، 114)

فالشاعر في هذه الأبيات يتغنى بالثورة التي أبهرت العالم فكانت ملهمة لهؤلاء الشعراء، يقول كذلك:
مولد الثورة يا منبع امال الجودود خطرات منك كالأنوار تسري في الوجود

أنت من أنت انفجار هائل بين السدود

أنت للأوطان فتح واعتذار وخلود

أنت يوم عربي الفجر وضاع الحدود (خمار، 1967، 115)

و من هذه الأبيات نستنتج أن الثورة أعطت أملا كبيرا للشعب الجزائري بتحقيق حلمه في الحرية والاستقلال اهتم الشاعر محمد بالقاسم خمار بالثورة فكانت ملهمته في شعره فقد كان الحس الثوري والقومي النابض متميزا فيها وأهم دافع له هو الفتح من نوفمبر فكانت انطلاقة أول نوفمبر سنة 1954 فاصلا تاريخيا بارزا في حياة الجزائر، فقد تغيرت فيها المفاهيم وانقلبت الأشياء رأسا على عقب وتغيرت فيها حياة الشعب وتفكيره ونظره إلى الفكر والأدب والسياسة وشتى نواحي الحياة الأخرى... (خري، 1974، 45)

وهذا ما جعل الشاعر يولي هذا الشعر أهمية بالغة ذلك أن أول نوفمبر عند الشاعر أبي القاسم خمار "ليس كبقية الشهور الأخرى فهو في تفرد و تميزه كالجوهرة التي تتصد وسط العقد فبدونها يصبح عديم.

كما نجد شعر محمد العيد قد حفل بالقصائد السياسية، والمقطوعات الوطنية الحارة، وذلك ما نجده في باب "ثوريات"، من ديوانه الذي حفل بقصائد تعبر عن كفاحه، فلم يعد ي طلق أنه حزين مغلوب على أمره لا حيلة له إلا الصبر ريثما يأتي الفرج، بل غدا صوتا غاضبا متمردا ينظم شعرا كاللهب يحترق فيه شعبه ويدعوه إلى الكفاح وترك الخوف إلى عدم الاستسلام لغاصبيه (فتح الباب، 2002، 30).

أناديك للخير خير *** نداء و أوصيك حق الوصي

ذر الخوف تعرف ثنايا السلوك *** فمن هاب خاب و ضل الثنية

رأيت المنايا سبيل المنى *** فحاطر تصب منية أو منية

تولي زمان الرضا بالهوان *** ووافي زمان الفدى الضحية

أنصلي الجحيم، و نسقي الحميم *** و نرعى الوخيم، و نعطى الدينة ؟

لأفي عرقك، أزكى الدما *** أما في فؤادك أذكى الحمية ؟

ويطلب إلى فرنسا أن نرفع الحجر عن الشعب الجزائري، لأنه لم يعد قاصرا عن ممارسة حقوقه بنفسه كما كانوا يقولون، بل أصبح في مستوى فرنسا وعيا ووزنا.

و لا ننسى دور شاعر الثورة مفدي زكريا الذي كثيراً ما التزم في شعره بقضية الوطن و حب الوطن فجعل من فاتح نوفمبر نقطة تحول و التزام بالثورة الجزائرية في حياة الشعب الجزائري بصفة خاصة والجزائر بصفة عامة، وذلك لأنه مثل نقطة الانطلاق نحو الحرية نحو استرجاع الحرية والسيادة، استرجاع الكرامة مثل البداية الحقيقية للنضال، للكفاح المسلح الذي جاء بعد المفاوضات

السياسية التي لم ت بنتيجة تذكر ولم تحقق أ من مطالب الشعب، فوجد الشعب الجزائري نفسه أمام خيار لا رجعة فيه هو الرصاص، نوفمبر يمثل ربح ميلاد الشعب الجزائري، وهذا ما جعله مقدسا لنسبة للشعراء، ت ملهما لأغلب الشعراء، يقول فيه مفدي زكريا:

تبارك ليلك الميمون نجما*** وجل جلاله هتك الحجابا

زكت وثباته عن ألف شهر*** قضاها الشعب يلتحق السرابا

إن الجزائر قطعة قدسية*** في الكون لحنها الرصاص ووقعا

وقصيدة أزلية أبياتها*** حمراء كان لها نوفمبر مطلقا

نظمت قوافيها الجماجم في الوغى*** وسقى النجيع رويها فدفع (مفدي، 2006، 30)

يقول محمد صالح وية في قصيدته "الثائر":

يا رفاقي في الذرى، في السجن، في القبر، وفي آلام جوعي

قهقهه القيد، برجلي رفاقي حدقوا فالثائر يجتر ضلوعي

جنون الثورة الحمراء يجتاح كياني ومغارات ربوعي

أقسمت أمي بقيدي، بجروحي، سوف لا تمسح من عيني دموعي

أقسمت أن تمسح الرشاش والمدفع والجرح بمنديل دموعي

قسمت أن تغسل الجرح وتغدو شعلة تضرم أحقاد الجموع (باوية، www.albaptainprize.org)

في هذه القصيدة يظهر إيمان الشاعر لثورة وقوا وفاعليتها في تحقيق ما يسعى إليه الشعب الجزائري حتى وإن

ضحى بكل ما يملك في سبيل الثائر من الغاصب المحتل وفي سبيل استعادة الوطن، كل كلمة وردت في هذه القصيدة تعبر بصدق

وإخلاص عن إحساس الشاعر، تعبر بقوة عن المعاناة التي يعانيها الشعب الجزائري في سبيل نيل الاستقلال، كل كلمة تخترق

القلب وتسكن داخله، لتحسسه لمعنى الحقيقي للثورة ولماذا اندلعت، هذه القصيدة توضح بشكل جلي الالتزام الحقيقي، التزام

الشاعر الجزائري إزاء قضيته لدرجة الأولى وقضية وطنه لدرجة الثانية، كيف لا ؟ وهذا الإنسان قدم نفسه قربانا للحرية، وذاك قدم

الغالي والنفيس من مال أو سلاح أو طعام ونحو ذلك، بل ترى الشعب كله يتجاوب مع هذه الثورة أو تلك بطريقة أو أخرى بغية

الخلاص من ربة الاحتلال الذي جثم على صدر هذه الأمة أو تلك زمنا قليلا أو أكثر، فقد دقت ساعة الحساب، ودنا زمن

النصر، فلماذا لا يشارك الشاعر شعبه آماله وطموحاته في الحرية والاستقلال؟! لماذا يبقى متفرجا على ما يجري حوله من أحداث

جسام تكتب تاريخ الأمة الجزائرية بحروف من نار ونور، وهو الإنسان المرهف في الشعور والإحساس بآلام شعبه، وعذابات مجتمعه،

وكرامة أبنائه، والشاعر الذي لا يشق له غبار في التأثير على عقول الناس ووجدانهم، فيلهب شعره الكبير والصغير، الرجل والمرأة، الشيب والشباب على السواء في مشارق الأرض ومغاربها، كيف لا؟! وشاعر الثورة يقول في لازمته المشهورة بعد عشرة أبيات منها:

شغلنا الوري، وملانا الدنيا

بشعر نرتله كالصلاه

تسايحه من حنايا الجزائر (مفدي، 1987، 14)

فقد التزم الشاعر بقضية شعبه الجزائر منذ نعومة أظافره، وسجن من أجلها خمس مرات، وظل طول حياته يردد أناشيد الجزائر، أو ليس هو القائل:

والدماء الزكيات الطاهرات

قسما بالنزلات المحقات

في الجبال الشامخات الشاهقات

والبنود اللامعات الخافقات

وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

نحن ثرنا فحياة أوممات

فاشهدوا..فاشهدوا..فاشهدوا

وانظر إلى الشاعر كيف عايش التجربة مع أول شهيد أعدم بالمقصلة؛ البطل (أحمد زبانا) إذ يقول، فأحسن القول:

يتهادى نشوان يتلو النشيدا

قام يختال كالمرسيح وئيدا

طفل يستقبل الصباح الجديد

باسم النغر كالملاك أو كالط

رافعا رأسه يناجي الخلود

شامخا أنفه جلالا وتيها

لأ من لحنها الفضاء البعيد

رافلا في خلاخل زغردت تم

دُ فشدّ الجبال يبغي الصعود

حالما كالكليم كلمه المج

ر، سلاما، يشيع في الكون عيدا (مفدي، 1991، 10)

وتسامى كالروح في ليلة القدر

إلى أن يقول، في مشهد رائع عن هذا البطل من أبطال الثورة المجيدة للشعب الجزائري، وخزي وعار للجناء من الفرنسيين الذين أعدموه بالمقصلة:

ووافى السماء يرجو المزيد

وامتطى مذبح البطولة معراجا

كلمات الهدى ويدعو الرقود

وتعالى، مثل المؤذن، يتلو

ونداء مضي يهز الوجود:

صرخة، ترجف العوالم منها

>> اصليوني، فلست أخشى حديدا>> (مفدي، 1991، 18)

>> اشنقوني، فلست أخشى حبلا

ليس هذا يعد من (الالتزام في الشعر) من شاعر فحل تجاه وطنه وأمتة، وأبطالهم من أمثالهم الشهيد (زبانا)؟! وما أدراك ما الشهيد (زبانا)؟! إنه أول شهيد في الجزائر أعدم بالمقصلة؛ إنه واحد من أفراد هذا الشعب العظيم الذي قال عنه الشاعر:

هَبْ مستصرخا، وعاف الركودا

وإذا الشعب داهمته الرزايا

إلى أن يقول عن الشهيد (زبانا) وأمثاله:

عشتم كالوجود، دهرًا مديدًا

يا زبانا ويا رفاق زبانا

وتمنى بأن يموت شهيدا

كل من في البلاد أضحي زبانا

الشاعر الجزائري شاعر ملتزم في موضوعات شعره، وفي لغته وأسلوبه، غزير في عطائه، مخلص في انتمائه، وقد جاء شعره واضحا في دلالاته، عميقا في أصالته، صادقا في تعبيره عن هموم شعبه وأمتة، فلم يترك مناسبة وطنية إلا كان لها من شعره القصائد المشحونة بالوطنية والعروبة، ولم تتح فرصة للمجاهرة بالحقوق دون أن يغتنمها ويشارك فيها، ولو أدى به ذلك إلى السجن، فقد كان إنتاجه مشحونا بحب الوطن وبحب العروبة والإسلام، وهذا هو الالتزام بمعناه الأخلاقي الذي ينسجم مع فكر الشاعر وتوجهه العربي الإسلامي الذي رسمه لنفسه منذ أن وعى بمسؤوليته في توعية الشعب الجزائري للمطالبة بحقه في الحرية، فتولدت من تلك الشحنات ثورة أقر بها العالم بأنها أعظم الثورات شجاعة وجرأة وحباً للوطن من غير استسلام، ولذا كانت الثورة الجزائرية ولا زالت موضوعا شيقا يفتح مجالات متعددة من البحث والدراسة، سواء من الناحية التاريخية، أو السياسية، أو الأدبية، ولا يمكن أن يتجاوزها الزمن لأنها تمثل رمزا خالدا لكل المعاني الخالدة، رمزا للكفاح، رمزا للمقاومة، رمزا للصبر، رمزا للتضحية، لذلك توجب على الشاعر الجزائري أن يعبر عنها تعبيرا يمنحها المكانة التي تستحقها، ولطريقة التي تستحقها، وأن يصورها تصويرا حقيقيا صادقا دقيقا، يقول أبو القاسم سعد الله...: "ويكفي الشعر الجزائري أنه احتفظ بميزة الصدق، وأنه كان صدى لخلجات الشعب وأناته، صورة لكفاحه منذ استهل" (سعد الله، 2007، 32).

خاتمة :

أخيرا نختتم قولنا بأن ثورة الجزائر قد ألهمت المثات من الشعراء العرب ليعبروا بأقلامهم عنها وعن لهيها، وتجدد قرائحهم بأروع الأشعار المخدلة للآلام وللبطولات وللنيران المستعرة في أرض الجزائر، والتي سلطها المستعمر الغاشم على هذا الشعب الأبي، فنفض عنه غبار السنين الطوال ونهض نهوض رجل واحد عملاق متحديا الذبابات والرشاشات والقنابل ومحوّلا كفة التاريخ لصالحه الخاص، فكانت "كلّ طلقة رصاص تنبعث زوبعة من الورود، تفتجّر غيمة من عطر يداعب روحك، ويأخذ بيدك ليدخلك عمق

النضال والجهاد والاستشهاد في الأحياء البسيطة المتواضعة (قينة، 1988، 470) وفي كل شبر من هذا الوطن الغالي الذي اتجهت نحوه عواطف الجزائريين والعرب كلهم مواكبين أحداثه، صانعين من شعر شعرائهم ملحمة شعرية غناها الدهر بعد أن لحنها القلوب.

الإحالات و الهوامش:

• القرآن الكريم : سورة الفتح . الآية 26 .

1. مصطفى نوال، (2000)، "نزار... وقصائد ممنوعة"، ط2، مركز الذاكرة للنشر والأعلام، القاهرة، مصر.
2. ابن منظور، "لسان العرب - مادة أَلَزَمَ"، دط، دار صادر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
3. أبو حاقّة أحمد، (1979)، "الالتزام في الشعر العربي"، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
4. طبانة بدوي، (1984)، قضايا النقد الأدبي، دار المريخ، الرياض، السعودية.
5. مجدي وهبة و كامل الخطيب (1984)، "معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب"، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان.
6. عبد النور جبور، "المعجم الأدبي"، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
7. غالي شكري، (1970)، "أدب المقاومة"، دار المعارف، القاهرة، مصر.
8. رماني ابراهيم، (1985)، "أوراق في النقد الأدبي"، دار الشهاب، الجزائر.
9. نزار قباني، (1971)، "هوامش على دفتر النكسة"، ط6، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان.
10. حسين طه (1985)، "خصام ونقد"، ط12، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
11. (بلال عمارية)، أم سهام جولة، (1986)، "مع القصيدة"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
12. العطار نجاح ومينة حنا :، (1979)، "أدب الحرب"، ط2، بيروت، لبنان.
13. شرقي الرفاعي أحمد، (2016)، "الشعر الوطني الجزائري (1924/1954)"، دار الهدى للطباعة و النشر، عين مليلة، الجزائر.
14. بلقاسم سعد الله، (1969)، "الحركة الوطنية الجزائرية (1930/1900)"، ط1، دار الآداب، بيروت، لبنان.
15. محمد الهادي الزاهري، (1926)، "شعراء الجزائر في العصر الحاضر"، ج1، المطبعة التونسية، تونس.
16. حمود رمضان، (1928)، "بذور الحياة"، دار النشر و الطباعة، تونس،
17. إسماعيل عز الدين، "الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية"، ط3، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، لبنان.
18. ناصر محمد، (1978)، "رمضان حمود الشاعر الثائر"، ط1، المطبعة العربية الجزائرية.
19. الركبي عبد الله، "دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث"، الدار القومية للطباعة والنشر، روض الفرج، مصر.
20. الطمار محمد، (2006)، "تاريخ الأدب الجزائري"، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر.
21. عقاق قادة، (2004)، "الكلمة الشعرية ذات المنحى الثوري والبعد التحرري في الشعر الجزائري الحديث"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 3 أفريل، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر .
22. خرفي صالح، (1984)، "الشعر الجزائري الحديث"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

23. مؤيد صلاح، (1963)، "الثورة في الأدب الجزائري"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
24. أبو القاسم خمار، (1967)، "أوراق" ديوان شعري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.
25. صالح خريفي، (1974)، "أنت بلادي"، الأعمال الشعرية الكاملة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
26. فتح الباب حسن، (2002)، "شاعر الجزائر"، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
27. مفدي زكريا، (2006)، "اللهب المقدس" ديوان شعري، دار موفم للنشر، جزائر.
28. مفدي زكريا، (1987)، "إلياذة الجزائر"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
29. مفدي زكريا، (1991)، "اللهب المقدس"، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
30. سعد لله أبو القاسم، (2007)، "دراسات في الأدب الجزائري الحديث"، ط5، دار الرائد للكتاب، الجزائر.
31. عمر بن قينة، (1988)، "الريف والثورة في الرواية الجزائرية"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
32. مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود للإبداع الشعري، (2008)، "باوية محمد صالح
الثائر"، www.albabinprize.org.